وصية أم

عليـــــك الـــــزرع حتـــــى تـــــتمكن مـــــن الحصـــــاد

الحياة ليست ثابتة علي وتيرة واحدة ، يوم إلى يوم تتغير الأحوال وتنقلب الأمور أو تتعدل .

أنا سيدة أحب الحياة متزوجة وأميل الي التوسط في كل شئ ، أُقدر اللحظات السعيدة لدرجة أني لا أستمتع بالتصوير " السلفي " و أفضل أن أستمتع بوقتي وأستنشق عبير الأوقات بتخليدها و أن أتذكرها ،لا أخوض في الخيال كثيراً لأنني امرأة واقعية أعتز بالماضي ولكن لا أحمل حنين الرجوع له ، أعي إن كل وقت في حياتي له مزايا وعيوب ، به السيء والجيد ،ولكن ما أثقل عبء المستقبل الذي دائماً أنظر اليه .

عندما أدركت أني أحمل هم المستقبل وان هذا طبعي الذي لن يندثر في ملامح شخصيتي ، في ذلك الوقت فهمت فقط أن الحياة ليست رفاهية ، وأن كفة ثقل المستقبل تطب وتزيد عن كفة ثقل حرمان وندم الماضي او الحنين له .
فهناك بشر يداهمهم الماضي بكل جروحه وهناك من يثقلهم حنين الذكريات لكن هناك من لا يعبأ بالماضي دائما عيناه مسافرة الي مجهول المستقبل حائرة خائفة من غدر الغد .

أراقب السنين ماضية في آداء مسؤلياتي وأعبائي ، لدي طفل وطفلة أستمتع بأمومتي معهم ، أهتم بكل تفاصيل تربيتهم ، لا آبه بشئ غير أني أراعاهم وآتطلع إلى توفير إحتياجتهم ،أحاول أنا وزوجي الحفاظ دائماً علي كيان أسرتنا وحياتنا القائمة علي الحب والتعاون

والترابط ، نتحرك للأمام خطوة تلو الأخري متماسكين ومتحابين .
وفي يوم لم أذهب فيه إلى عملي بسبب بعض الإرهاق نتيجة تحملي ضغوط العمل والمنزل بدون راحة ، جلست علي الأريكة بجانب النافذة ألمطلة على شارع اصطفت فيه العربات ودوت أصوات الزحام ، أرى الكل مسرعا في طريقه إلى مقصده ، فسرحت متجولة بخيالي إلى المستقبل الذي ينتظرني عندما أكبر في السن وأصبح امرأة عجوز ، ظللت أغوص في أعماق الخيالات و أرسم ملامحي التي ستعتلي وجهي في كبري .
وفجأة طار بي الزمن ووجدت نفسي عجوزا تجلس بالمنزل وحدها لا أنيس أو جليس يلازمها ، تستيقظ لتأكل ثم تأخذ الأدوية و تجلس علي الأريكة منتظرة عودة الإبن مع الأحفاد لتتسلي معهم بعض الوقت ولكن عندما يرجعون من المدرسة ، يجري عليها أحفادها ليطبعون علي وجنتيها القبلات التي تنعش في روحها الحياة ، فهي أيضاً تستقبلهم بالأحضان والترحاب ولكن تنتزع منها تلك اللحظات الجدول اليومي لحياتها ، فبعد الغداء الذي يجمعهم على مائدة واحدة ، تأخذهم أمهم ليستذكروا دروسهم، و يخرجون بعد ذلك للدروس الخصوصية ويعودون وقد أنهكت طفولتهم شدة أعباء الدراسة ، وركض الوقت لينتهوا من واجباتهم ، ينتهي اليوم ويتأهبون للذهاب للنوم حتي يعيدوا تلك الدورة من جديد في صباح اليوم التالي .

مرت الأيام ثقيلة ، شعرت أنني بلا قيمة ، كنت أتحسس نفسي الحاضر الغائب الذي لا قيمة لوجوده ، فبماذا أنفع من حولي ، ما الجدوي من وجودي غير كوني أشكل عبأ ثقيلا علي أبنائي وأحفادي ، تذكرت الأيام المتكدسة بالمسؤليات من عمل و تربية أبنائي ومهامي الزوجية التي كنت فيها أشعر بالإنهاك والأرهاق المستمر ، كنت أشتكي حالي ، فأنا أركض وألهث كي أجد الوقت لإتمام مهامي ،

تخيلت حينها أن ذلك أشقي ما في الدنيا وكنت أتساءل أين الاستمتاع بالوقت ! كنت أحن للطفولة والشباب ، تلك المرحلة الخالية من المسؤليات والهم ، فأنا لم أستمتع بها كما يجب ،لأني كنت أتطلع للغد بمسؤلياته ، حقاً ...الإنسان لن يرضى ، يمسك بيده الحاضر فيتحسر علي الماضي أو يستعجل المستقبل ولكن لا يدرك أن الحقيقة الوحيدة هي اللحظة الراهنة التي أضمن وجودها بين يدي ، فالماضي ذهب بما فيه من حلو ومر ، والمستقبل مجهول مضببة سماؤه ، ليتنا نتعلم نستنتمع بالحاضر كيف نسعد بالحياة .
وفي يوم أطالع صحف الصباح كي أملأ فسيح وقتي بأحداث العالم ، قرأت عن دار مسنين يحتفل برأس السنه بطريقة مختلفة ، حيث أن إدارة المكان أتت بمصففي شعر للقيام بقصات مختلفة للمسنات الساكنات بالدار ، وكان الخبر ملحقاً بالصور المبهجة حيث ضحكات المسنات تعلو وجوههن ، كاد يكون هذا الخبر غريبا للبعض أو مثيرا للسخرية ،ولكن كان استقبالي لذلك مختلفاً ، سعدت جداً وشعرت ببهجة من نوع خاص ، أمل وحب للحياة ، دائما ننظر إلى دور المسنين بأنها السجن أو العقاب الذي نذهب إليه في خريف العمر ، عندما تنقلب بك الحياة ويتركك أبناءك ويتناسونك وتلهيهم مشاغلهم الحياتية ، فهم يرمون أهليهم بتلك الأماكن البشعة ، ويعاني فيها كبار السن من الإهمال والوحدة واليأس وأحياناً سوء المعاملة ، و ينظر الجميع إلى هؤلاء الأبناء نظرة قاسية ويتعبرونهم أبناء عققة لأنهم لم يكترثوا بأهاليهم و لم يجدوا وقتا لهم فألقوا بهم في ذلك المكان مقابل المال .

الحياة هي واقع نعيشه بحلوه ومره ، المشاعر لها مقامها المحفوظ والثمين ولكن يجب أن نعير أهتمامنا أكثر للواقع الذي يفرض علينا

أشـــياءا نفلعهـــا رغـــم مشـــاعرنا ، رغـــم أنفونـــا كمـــا يقولـــون .

فكـرت مـرات فـي قـراري الـذي سـأعلنه للجميـع ، هـل سـيوافقون ؟ هـل سيسـاعدوني ؟ هـل سيصـدمون ؟! لكـن الأسـئلة الأهـم كانـت تـدق لبـي كـل حـين بخفقاتهـا المرتعشـة ،كيـف سـأتأقلم ؟ هـل سـأتقبل تلـك الحيـاة ؟ التغييـرات دائمـا مرهقـة فـي البدايـة ، مـاذا لـو لاحقنـي النـدم ولـم أسـترح ! عنـدما همـس بـي ذلـك الصـوت الخافـت فـي أذنـي " أفعليهـا قبـل أن يفعلهـا الأبنـــاء ، قبـــل أن يأتيـــك المـــرض ، كـــوني شـــجاعة "

أنتظـرت حتـي حضـروا الأحفـاد وابنـي وزوجتـه مـن أعمـالهم و أيضـاً قمـت بالاتصـال بـابنتي وزوجهـا مـع أولادهـا حتـي يـأتوا لأراهـم ، كنـت أنتـوي الإعـلان عـن نيتـي فـي تلـك الليلـة ، أنتظـرت الوقـت المناسـب حتـى أعلنهـا لهـم ، تسـامرنا وضـحكنا وأسـتمعت إلـي حكايـاتهم فـي يوميـاتهم ، كنـت أسـتمتع بـالنظر إلـيهم مجتمعـين حـولي ـ لا يوجـد نعمـة أكبـر مـن وجـود الأسـرة فـي حياتنـا ، وأخيـراً قلـت لهـم : أريـد أن أذهـب لـدار مســـ
لـم أجـد إجابـة أو حتـى اسـتنكار مـنهم ، لمحـتهم مصـدومين فـاغرين أفـواههم ويسـترقون النظرإلـى بعضـهم الـبعض . ....فأبتسـمت لهـم وطلبـت مـنهم أن يفهمـوا أولاً مـا أريـده ، أخبـرتهم أن الفتـرة الماضـية كانـت مـن أسـعد أيـامي ، فأنـا وسـط أحفـادي وأبنـائي ، أسـعد بحـبهم و ووجـودي بيـنهم حتـى قـررت أن أذهـب فـي زيـارة لـدار مسـنين لأكتشـف كيـف يعـيش مـن حرمـوا مـن أسـرهم و عـائلاتهم ويعيشـون فـي سـجون الوحدة والمرض والعناء ، وقررت أن أقضي يومي بالكامل هناك .

ذهبـت ورأيـت مـن يعـاني مـن آلام المـرض ، ومـن يكابـد مآسـي الوحـدة والهـــم ، ومـــن ينتظـــر نهايـــة أيامـــه بكـــل صـــبر ورضـــا .

توغلت داخل الدار ورأيت حولي النظرات راصدة لتحركاتي ;فكل من يأتي هنا لزيارة المرضى يكون من الشباب ليس عجوزاً مثلهم ! دخلت قاعة مليئة بالمسنات و وجدت بعض الشباب يمرحون ويضحكون معهم ،وسألت العاملين عنهم ، وعرفت أنهم يأتون كل أسبوع ليقدموا بعض السعادة والمرح لهؤلاء المنسيين وسط زحام الحياة ، لم أكن أعلم كيف لهؤلاء الشباب أن يجلبوا كل تلك البهجة في الغرفة الصغيرة ، فمنهم من يجلس بجانب مسن قريب إلى نفسه ، ومنهم ومن يتكلم ويقول الأشياء المضحكة ومنهم من يساند كبير فى السن حتى يأخذ الدواء . كان حقاً المكان يعج بالبهجة والفرح وأخيراً مشوا وتركوا بعدهم صمت مخيف .

بعد ما كنت أرى الأبتسامة تعتلي الوجوه و الضحكات ترج المكان بجمالها ، عادت أصوات الصمت يدوي بالمكان ، وعاد الروتين إلى عمله ، لاحظت أن كل شئ بموعد : الدواء ، الطعام ، النوم ، الكلام ، مشاهدة التلفاز . لا أرى جو عائلى او أسري ، فكل شئ مقدر حسب جدول زمني وعلى الجميع الالتزام به .

أنتهى يومي هناك وجئت إلى المنزل ، أفكر أتأمل المشهد ، أعلم أن جمعيكم منهك بمسؤلياته وإلتزامته وهذا طبع الحياة للأسف ، تجعلنا نلهث وراءها وننسي الاستمتاع بما نعيشه ، أتمتع برؤيتكم حولي وبخير ، لكنني في إحتياج لحياة جديدة و التعرف علي مجتمع مختلف ، التأقلم مع ظروف مختلفة ، الاندماج مع أهداف فريدة حتى أشعر أنني على قيد الحياة ، يجب أن أعترف أنني بحاجة لواقع جديد ، أحتاج أن أشعر أني أساعد غيري في حاجته حتى لو كنت أشعر بنفس إحتياجه ، أريد أن أشغل نفسي بهموم غيري حتى أقوى على مواصلة ما تبقي من حياتي ، كل فرد فيكم له حياته الخاصة وعالمه وواقعه المختلف عن الآخر ، أريد أن أستفرد بعالمي ولا أعيش تائهة

في عالم غيري ،لا أريد أن أكون فردا جانبيا يحظى بالرعاية وينتظر النهاية .

أعرف أن كلامي غريبا وغير مألوف ، أعرف أن أفكاري مختلفة أن الطبيعي أن يحظى الأنسان بالراحة في نهاياته ولكن الراحة و السكون والاعتياد تسبب لي الألم والوحدة ، دعوني أجرب ما أختبرت؛ فلن أخسر شيئاً

تحدث ابني وفي وجهه علامات الدهشة والعجب : كيف ياأمي ، لم نقصر في رعايتك ، نحن لا نقدر أن نعيش بدونك ، كيف لك أن تحرمينا وجودك بيننا ؟ هل أحد ضايقك ؟ هل قصر معكِ أحد؟ لماذا تريدِين تركنا ،أنت أمنا وكما تعبتِي معنا وربيتنا و بذلت كل ما في وسعك لراحتنا ، يجب أن نرد لك ولو جزءا بسيطا من حنانك ورعايتك وبعض حقك ، هل تريدن لنا تهمة العقوق في نظر الناس ، كيف نتركك ؟! ، إن كل من يسكنون تلك الدوريتمنون أن يكونوا بين عائلاتهم ،وألا يغدر بهم الزمن هكذا ! وأنتِ تريدِين أن تفعلي هذا بكامل إرادتك!

لم أرد أن أواجههم بالحقيقة الخفية التي طالما حبستها في صدري و تخيفني طيلة الوقت؛ أن أكون عبأ ثقيلا على كاهلهم ، لا أرغب في أن يأتي الوقت وأكون العائق في طريقهم ، أخاف من ثقل حملي عندما تزداد شيخوختي وأمضي في الطريق المشروع لكل من هك مثلي، أتهيب الموقف عندما يقررون أن يدخلونني هم بأرداتهم إلى دار المسنين كي يتخلصوا من مرضي وحملي ، أخاف أن يتنازعوا فيما بينهم لكي يتهرب كل منهم من مسؤليتي ، لا ألومهم ، فالحياة تفاجئنا كل يوم بالأثقال والأحمال فليكتفوا بأعبائهم ومسؤلياتهم . وكانت لحظات الوداع عندما أودعوني الدار في منتهى الألم والحزن حتى كدت أتراجع عن قراري، لكنى تماسكت وتشددت لأبدو غير

آبهة بالموقف وسألتهم أن لايبخلوا علي بالزيارات والاتصالات .
كانت الليلة الأولى صعبة ، لم أكن معتادة على فراشي الجديد ولا غرفتي الجديدة ، كانت غرفة نظيفة وجميلة بها نافذة تطل علي الحديقة الصغيرة التي أمام المبني ، تكتسيها الستائر والدهانات الكئيبة بعض الشئ ولكن أظن أني أنا من توسمت فيها الكآبة كمثل من يدخل المشفى يظن أن الغرف كلها كيئبة و سيئة حتى لو كانت كغرف أحد الفنادق الفخمة .
لذلك فر النوم من عيني ، لم أقو علي الأسترخاء واستسلمت لليقظة التي أعترتني وذهبت مع تخيلاتي إلى أفق بعيدة .

جاء الصباح ناثراً ضوءه على نافذتي الصغيرة ، ودخلت إحدى العاملات بالدار لتوقظني ولتعلمني بمواعيد الفطور اليومية و سألتني أذا كنت أحتاج مساعدة ، فطلبت منها أن تصف لي الطريق الى المطعم أو القاعة المخصصة لتناول الطعام، وقمت بتبديل ثيابي مسرعة و خرجت من الغرفة لأتوجه لمكان تناول الفطور ، ومشيت ألقي نظرة علي ما يحدث حولي ، كان هناك غرف كثيرة تمتلىء بمسنات تتفاوت أعمارهم وحالتهم الصحية ، وكنت أسترق النظر إليهم لأجد منهم من تتذمر على المساعدات ،ومنهن من تسير ببطء نظراً لحالتها الصحية ، ومن تجلس فوق كرسي متحرك ، ودخلت غرفة الطعام، ووجدت الجميع يجلس ويتناول الفطور في هدوء وتريث شاخصين ومنتبهين إلى وجودي بينهم ؛ فقامت أحدى المساعدات بتوجيه التحية لي و أشارت لهم بأني نزيلة جديدة معهم بالدار ، فرحبوا بي وألقوا علي التحايا والترحيب، وأبتسمت رداً لترحيبهم المبهج لي ،
جلست أتناول طعامي المختلف نوعاً ما عما كنت أتناوله في بيت أبنائي ، فالطعام كان صحياً جداً ، تناولت فطوري في هدوء وتطلعت

إلى من حولي ، يثرثرون ويتحدثون مع بعضهم ، في حين أعلنت إحدى المساعدات عن انتهاء موعد الفطور و حان موعد الخروج للحديقة الخلفية للدار للتمتع بالشمس والصباح الجديد .

توجهنا جميعاً للحديقة وجلست أتأمل من حولي ، وجدت من تتمشي بمساعدة أحدي العاملات بالدار ومن تجلس وتتمعن الشمس والطبيعة من حولها ، و جال بخاطري أنها تسترجع ذكرياتها كي تستطيع أن تكمل حياتها ، ووجدت مجموعة مسنات يتحدثن سوياً ويضحكن ، فتوجهت نحوهن حيث رحبن بي ودعوني للجلوس ، وجدت راحتي في تلك المكان وسط ضحكات وآهات من نسيهم العالم وانطفأت أضواء الاهتمام عنهم وقل شغف الحياة بهم

مرت الأيام وأنا أقضي أيامي في معرفة قصص من حولي ؛ منهم من تركه أولاده في تلك الدار ومنهم من يعاني من أمراض عدة لا يقوى ذويه على تحمل أعباء ذلك المرض ، وجدت من كانت تتذكر الماضي وتحكي عن أمجادها وحياتها القديمة ؛ تستحضرها كأنها بين يديها تلك اللحظات ، تحاول أن تمسك بيديها بالذكريات وهي تقصها حتى لا تفر منها و تهرب ، وأيضاً هناك من لا يتذكر أي شئ عن حياته ، لا يعي إلا وجوده في ذلك المكان ، وهناك من تتذكر جيداً ولكن يهرب من ذكرياتها ، تريد ممحاة قوية لمحو آلامها الدفينة .

جاءت أول زيارة لأبنائي لي و كنت سعيدة للغاية بمحبتهم والتفافهم حولي ، لا أنكر أنه إحساس لا إرادي يضغط على الإنسان بكل قواه ، إحساس قوي يجعلك ترغب بشدة في أن تقف فخورا وسط أحبابك و عائلتك ، وتريد أن تقول للجميع بصوت عال : إنهم عائلتي ، كنت أنكر بجفاء ذلك الشعور الجميل الذي يفتقده بعض الناس من حولي ؟

جرت الأيام وزيارتهم لي تقل فقد اعتادوا على غيابي ، أخذتهم الحياه كما تأخذ الجميع وتنهكه بهمومها ، ولم أحزن حينها لأني

عرفت أن ذلك ما سيحدث ، نعم أنا متأكدة من حبهم لي ولكن صدق المثل حينما قال البعيد عن العين بعيد عن القلب ، قررت أن أعود لفترة وسطهم راجعة لحياتي معهم والتمتع بجلستهم ومزاحهم ، وحين عدت شعرت أني غريبة عن المكان والحياة تجري من حولي ، فاليوم يتطاير بسرعة فائقة ويشعرني بأن العمر يتسلل وستأتي النهاية القريبة ـ شعرت انني أفتقدت من رحلت عنهم ، شعرت بحنيني لمن هم في سني ونفس مرحلتي يعانون ممن أعاني ويفهمون ما أمر به . اشتقت لحديث المسنات وهن يسردن نظرياتهن بفرحة و حماس ، يسمعونني نفس القصص بذات التفاصيل وينتظرن ممن يسمعهن رد فعل جديد ، فلم تكن في حوذتهن إلا الحكايات والذكريات ، فالعمر فل والأحداث لم تعد تحدث ولم يعدن الأميرات الائي يتخطين الصعاب والمأسى والتحديات ، أصبح كل ماضيهن فجأة يتجسد أمامهن في كل حين ويستولى على حاضرهن ، أما كلمة مستقبل فلم تعد تعني لهن شيئاً في قاموسهن.

استغربت حينها من إحساسي ، فهل يعقل أن أذهب هناك ثانية وأترك عائلتي ، فالمره الأولى كانت بمثابة تجربة أريد أن أرى وقعها على نفسي ، ولكن تلك المرة أحن للمكان وأريد أن أذهب إليه بمحض إرادتي ! فهل ذلك بسبب انشغال عائلتي عني ، أم بسبب أنني لم أعد أنتمي لعالمهم الحديث المملوء من الكلمات والايحاءات التي لم أعد أفهمها ؛ فهي تخص جيلهم وعصرهم ، أم افتقد وجودي وسط مجتمع تربطه نفس الصفات ، فهم من نفس عصري وزمني الذي أتوق للرجوع اليه دوماً.

كم كنت جميلة ورشيقة ، كم كانت ملابسي تجاري موضة عصري ، كم أفتقد أطفالي وهم صغار يثرثرون حولي وأنا استدفىء بأحضانهم

قررت أن أنقل لهم الخبر ولكن قبل أن أتفوه بكلمة ، وجدت الحال تبدل وعاد بي الزمن سريعاً لما ألف عليه في الماضي .

تحسست وجهي ؛ فإذا هو يحتفظ بنضرته ولا وجود للتجاعيد ، وشعري عاد للونه الأسود والشيب اندثر فجأة وهرب ، فرحت حين وجدت أطفالي قادمون إلي : يا أمي نحبك كثيراً . وتيقنت أنني كنت في حلم طويل أغفاني عن الواقع ، غمرتني السعادة و قررت أن أستمتع بكل تفاصيل حياتي مع أولادي وأن أنتزع لحظات الفرح رغما عن الحياة بما تأتيه من التعب والإجهاد والمسؤليات ؛ قررت أن أذهب اليوم مع أبنائي لقضاء اليوم مع والدتي التي أصبحت وحيدة في بيتها وأتناسى ان أسأل عنها وأنشغل في حياتي ، قررت أن آخذ أبنائي ونزور أسبوعياً دار للمسنين قريبة من المنزل ونتفقد أحوال المسنات وندخل علي قلوبهم بعض الفرح الذي ينذر أن يزورهم .
وأخيراً جاء القرار الأهم بأنني سأكون سعيدة مهما حدث وأن أشعر برهبة دور المسنين التي كنت أشعر بها من قبل ، فيسأتي الوقت حتماً وليس هو بعقاب او شئ كريه أو تقصير من الأبناء ، فالحياة أصبحت تثقل الجميع وأن أهم ما يجب أن أقوم به هو أن أقوم بكامل مسؤليتي وأقدم كل حبي لأبنائي وارجو الله ألا يجعلني أشعر بأنني حمل ثقيل عليهم ؛ فوجودي في بيت مسنين أخف علي وطأة من وجودي بجانبهم وهم مثقلون غير عابئين ، متضررون من مسؤليتي . سأتقبل الحياة مهما حدث ولن أتخلى عن إيماني بالله الذي يدوم والكل زائل !